مجلة رفوف – مخبر المخطوطات – جامعة أدرار – الجزائر ـــــــــــــــ المجلد: 12 / العـدد:01 (مـــاي 2024) ص 311– 325
ISSN: 2335-1381 EISSN: 2602-5949 Legal Deposit: 2013-6352

الدعاية الموحدية – قراءة في المسار والوسائل والنتائج –

Al-Mohad's Propaganda - A Reading in the Itinerary, Means and Results –

سمير بن لكحل[1]، مغنية غرداين[2]
Samir ben lakhal[1], maghnia ghardain[2]
1 جامعة محمد خيضر، بسكرة، مخبر التغير الاجتماعي والعلاقات العامة في الجزائر (الجزائر)،
samir.benlakhal@univ-biskra.dz
2 جامعة محمد خيضر، بسكرة، مخبر التغير الاجتماعي والعلاقات العامة في الجزائر (الجزائر)،
maghnia.gherdaine@univ-biskra.dz

تاريخ الاستلام: 2023/07/27	تاريخ القبول: 2024/03/25	تاريخ النشر: 2024/05/16

الملخص: يعرض هذا المقال قضية الدعاية كآلية استخدمتها الفئات الخارجة عن الحكم في التاريخ الوسيط عموما وتاريخ المغرب الإسلامي بشكل خاص، من خلال دراسة النموذج الدعائي الموحدي بداية من إبراز معنى الدعاية في اللغة ومفهومها الاصطلاحي، ثم تسليط الضوء على الشخصية الحقيقية لمحمد ابن تومرت الهرغي والتعرف على أبرز سماته الدعائية، بعيدا عن مبالغات الكتابات التاريخية خاصة الموحدية منها، وحتى الدراسات الحديثة في إضفاء هالة عليه، مرورا بالتعريف بأهم الوسائل التي استخدمها في ذلك الترغيبية منها والترهيبية، استنادا على وضعية المغرب الإسلامي ككل آنذاك، ووضعية قبيلة مصمودة بشكل أخص، مع التركيز في النتائج على استفادة عبد المؤمن بن علي الكومي من كل هذه الحملة ودلالات هذه الاستفادة.

كلمات مفتاحية: الدعاية، محمد ابن تومرت، مصمودة، الحكم المرابطي، عبد المؤمن بن علي.

Abstract

This article discusses the issue of deceptive propaganda used by external factions outside of the ruling authority in general historical contexts, and specifically in the history of Islamic west. The study focuses on the Unifying Propaganda Model, starting with highlighting the meaning of propaganda in language and its conceptual understanding. It then sheds light on the true personality of Muhammad ibn Tumart al-Hargi and identifies the prominent features of his propaganda, moving away from the exaggerations in historical writings, especially those related to the Unifying period, and even modern studies that have contributed to mythologizing him. The article proceeds to introduce the most important methods he employed, both persuasive and intimidating, reflecting the situation of Islamic Maghreb as a whole at that time, and Masmuda tribe. The results concentrate on how Abd al-Mu'min ibn Ali al-Kumi benefited from all these campaigns and the implications of this utilization.

Keywords: Mohammed ibn Tumart- Masmuda- Almoravid rule- Abd al-Mu'min ibn Ali.

المؤلف المرسل: سمير بن لكحل، **الإيميل:** benlaksamir79@gmail.com

1. مقدمة:

مثلت الدعاية أحد أهم الأسلحة التي استخدمتها الفئات الخارجة على الحكم عبر التاريخ الإسلامي، ولم يشذ تاريخ المغرب الإسلامي عن توافر هذا المكون في مسار قيام الدول، فقد ظهرت نماذج دعائية وإن اختلفت في مناط استخدامها إلا أنها اتفقت في وسائلها وغاياتها، معتمدة على قوة شخصية الدعاة من جهة وظروف من وقعوا تحت طائلة الحملات السياسية أن يقوض والاقتصادية من جهة أخرى. ولا شك أن النموذج الدعائي الموحدي لم يخرج على هذا الإطار، حيث يعد من أهم تطبيقاته بحيث استطاع تقويض أركان الحكم المرابطي الصنهاجي ويقيم كيانا سياسيا وحّد رقعة الغرب الإسلامي، بعد أن قاد دعاته حملة ركزت على عدة جوانب متعلقة بقبيلة مصمودة من جهة والواقع الاقتصادي والمذهبي للمغرب الإسلامي في ظل الحكم المرابطي من جهة أخرى، واستخدمت عدة وسائل في سبيل ذلك.

ويهدف البحث إلى تسليط الضوء على شخصية ابن تومرت الدعائية الحقيقية والآليات التي استخدمها خاصة التدجيلية والخوارقية منها وربطها بنتائج هذه الحملة، وخاصة بالنتيجة الكلية لها وهي تبوء عبد المؤمن بن علي سدة الحكم الموحدي، ما يفتح الباب واسعا أمام إعادة قراءة دوره من بداية الحملة الدعائية.

يقتضي البحث في موضوع الدعاية ودورها في قيام الدولة الموحدية النظر إلى محدداتها التي صاغتها من بدايتها إلى نهايتها والظروف العامة التي وجدت فيها، اعتمادا على منهجية استقرائية تحليلية للمادة المصدرية المتوفرة حتى لا نقع تحت طائلة التكرار والاجترار.

وسنحاول الإجابة في هذا الورقة البحثية على السؤال التالي: **إلى أي مدى يمكننا منهج الاستقراء في كشف المسار الحقيقي للدعاية الموحدية؟** وللإلمام بمفاصل الموضوع نطرح التساؤلات الفرعية التالية:

- إلى أي مدى ساهمت الكتابات التاريخية في إعطاء الصورة الحقيقية لشخصية ابن تومرت ودوره في الدعاية؟
- ما هي أبرز الوسائل الدعائية التي استخدما الموحدون؟
- فيما تتمثل أهم عوامل نجاح الدعاية الموحدية؟
- ما هو الدور الحقيقي لعبد المؤمن بن علي فيها؟
- ما هي أبرز نتائج الدعاية الموحدية؟.

2. تعريف الدعاية

1.2 لغة:

هي من مادة د ع و، تداعوا عليه أي تجمعوا، ودعاه أي ساقه، والنبي صلى الله عليه وسلم داعي الله، والداعية: صريخ الخيل في الحروب أجيبوا داعية الخيل، وادّعى كذا: زعم أنه له حقًا أو باطلًا، والاسم الدعوة والدعاوة (الفيروز آبادي، 2008، صفحة 548)، وفلان داعي قوم وداعية قوم: يدعو إلى بيعتهم دعوة والجميع: دعاة (الفراهيدي، 2003، صفحة 31)، وفي تعريف محدث في المعجم الوجيز نجد الدعاية هي الترويج لأمر أو مذهب أو رأي بالكتابة والخطابة ونحو ذلك، والدعوة: الحث على إتباع نحلة أو نحو ذلك، والداعية الذي يدعو إلى دين أو فكرة (مجمع اللغة العربية، 1980، صفحة 229).

2.2. اصطلاحا:

تعرف الدعاية بأنها فن التأثير والممارسة والسيطرة والإلحاح والتغيير والترغيب أو الضمان لقبول وجهات النظر أو الآراء أو الأعمال أو السلوك (الرضا و عمار، 2013، صفحة 199)، وهي عملية يقوم بها فرد أو أفراد في جماعة من الناس تربطهم وحدة معينة (جنسية، دينية، لغوية أو حرفية)، مدفوع أو مدفوعين بدافع عاطفي (حب أو كره أو غرور)، لإدارة أمور تلك الجماعة وتوجيهها وحملها على اعتناق رأيه/ آرائهم، أو طلب الثقة بذاته/ بذواتهم (الحفناوي، 2012، الصفحات 22–23)، والدعاية السياسية تهدف إلى توليد التصرفات يتعديل إدراك المجموعات السكانية التي تتوجه إليها وأحكامها التقييمية (دورندان، 2002، صفحة 9).

3. التعريف بشخصية محمد بن تومرت

مثّل محمد ابن تومرت أحد أهم الدعاة في التاريخ الإسلامي، وقد استطاع رفقة صاحب الدولة القائمة فيما بعد عبد المؤمن بن علي أن يترجم أفكرهما الدعائي بناءً على عدة أسس واعتمادً على وسائل متعددة من خلال الحملات الدعائية في سبيل خدمة المشروع السياسي الموحدي الجديد(تفترض الباحثة غرداين مغنية أن المشروع السياسي الموحدي في الأصل هو فكرة عبد المؤمن بن علي وهو من وظف محمد ابن تومرت في خدمة هذا المشروع بناءً على عدة استقراءات للنصوص التاريخية) (غرداين، 2016، الصفحات 510–535) اعتمادا على الظروف الخاصة بقبيلتي مصمودة وزناتة وأوضاع المغرب الإسلامي عموما.

ولد محمد بن تومرت سنة (484هـ/1091م) على أرجح الأقوال (بورويبة، 1982، صفحة 15)، وهو من أهل السوس حيث ولد بضيعة تعرف بـ:ايجلي ان وارغن (المراكشي، دت، صفحة 245)، وقد وقع خلط كبير وتضارب في نسبه ففي حين ذكر ابن خلدون أن أصله من هرغة، وساق نسبه على أنه محمد بن عبد الله بن وجليّد

بن بامصال بن حمزة بن عيسى (ابن خلدون، 2001، صفحة 301)، ذكره ابن القطان وابن خلكان على أنه محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن هود بن خالد بن تمام بن عدنان بن صفوان بن سفيان بن جابر بن يحي بن عطاء بن رباح بن يسار بن العباس بن محمد بن الحسن بن علي بن أبي طالب (ابن القطان، 1990، صفحة 87) (ابن خلكان، دت، صفحة 45). بينما نجد مؤرخين آخرين ينكرون هذه النسبة بالكلية (ابن ابي زرع الفاسي، 1971، صفحة 172)، ويبدو جليا أن قضية ادعاء النسب العلوي كانت أحد الأسس التي اعتمد عليها ابن تومرت للحصول على الشرعية السياسية، ويمكننا أن نستدل على ذلك من خلال:

- الخلط الكبير الذي رافق وصف هذا النسب.
- حالة الرفض لصحة النسب العلوي من قبل العديد من المؤرخين.
- شيوع ادعاء النسب العلوي للباحثين عن الخلافة أو إمرة المؤمنين بشكل خاص، أو العربي عموما إذا تعلق الأمر بالهدف السياسي للمدعي كنوع من آلية دعائية.

فنجد الفاطميين مثلا ادعوا النسب العلوي (ابن خلدون، 2001، صفحة 40)، والمرابطين ادعوا النسب العربي الحميري (ابن عذارى المراكشي، 1983، صفحة 129)، وعبد المؤمن بنعلي بعد ذلك وبحنكة ساق نسبه إلى قيس عيلان (المراكشي، دت، صفحة 265)، فمن الممكن أنه انتحل هذا النسب كسبا لقبائل بني هلال الوافدة على المغرب وهي التي تعود إلى نفس الأصل.

وقد وصفته المصادر بأنه كان قارئا محبا للعلم (ابن خلدون، 2001، صفحة 275)، وصاحب انقباض عن الناس وذاهب مذهب الحسبة وتغيير المنكر (ابن الخطيب، 1964، صفحة 266)، كما بالغ عبد الله كنون في وصفه حيث جعل منه ذا فصاحة ولسن وحجة قوية إلى ورع ونسك وغيرة شديدة على الدين (عبد الله كنون، 1961، صفحة 99)، وهي صفات في مجملها تحمل على المبالغة خاصة وأنه ليست لدينا معلومات عنه قبل رحلته إلى المشرق إلا بعض الإشارات التي لا تسعف في إعطاء تصور كامل عن حياته قبلها، كما يبدو التأثر بالروايات الموحدية حول المهدي واضحا فيها، على سبيل الدعاية وإعطاء صورة التفرد بالعلم والورع لابن تومرت، خاصة مع ورود روايات تاريخية أخرى وصفت المنطقة عموما بالجهل في أمور الدين والدنيا والسرعة لسفك الدماء من غير تحرج (ابن ابي زرع الفاسي، 1971، صفحة 177) (المراكشي، دت، صفحة 269).

رحل ابن تومرت إلى المشرق في شبيبته طالبا للعلم، فانتهى الى العراق واجتمع بعدد من العلماء منهم الكيا الهراسي (ت 504هـ/1110م) وأبو بكر الشاشي (ت507هـ/ 1114م) وغيرهم، أما عن لقائه بأبي حامد الغزالي ففيه نظر وقد اختلف المؤرخون حوله بين مثبت ونافٍ، ولو ربطنا أمر هذا اللقاء مع موضوع الدعاية التومرتية

للهدف السياسي لوجدنا أنه لن يتعد أن يكون وسيلة دعائية أشاعها ابن تومرت نفسه وروّج لها أتباعه، نظرا لمكانة الغزالي في العالم الإسلامي، ويمكننا الاستدلال على عدم حصول هذا اللقاء بعدة أمور منها:

- أن الفترة التي وجد بها ابن تومرت في المشرق كان الغزالي في عزلته بطوس، هذا على افتراض أن ابن تومرت قد زار بغداد أو العراق عموما، ولم يرد في ترجماته أنه انتقل إلى طوس، فجلها تذكر دخله مصر والحجاز والعراق (المراكشي، دت، الصفحات 245–246) (مؤلف مجهول، 1979، الصفحات 103–105) (ابن خلدون، 2001، صفحة 301) (ابن خلكان، دت، صفحة 46).

- **الأمر الثاني** هو رواية نقل ابن تومرت رد فعل المرابطين وفقهائهم تجاه كتاب الإحياء للغزالي برفضه وحرقه ودعاء الأخير عليهم، فيبدو واضحا الجانب الأسطوري منها، ويمكن أن تكون من مختلقات ابن تومرت وأتباعه لمنحه شرعية الخروج على المرابطين، فالأمر بالإحراق صدر بداية من سنة 503هـ أي بعد خروج ابن تومرت في رحلته والتي انطلقت بين 500 و502 هـ (المراكشي، دت، صفحة 103).

- تورد بعض المصادر إشارات حول بداية تأليف الغزالي لكتابه أو التحديث به، وهي تتحدث عن فترة لاحقة عن تاريخ خروج ابن تومرت من المغرب، فذكر السبكي في طبقات الشافعية والذهبي في سير أعلام النبلاء أن الغزالي حدث بكتابه بعد رجوعه إلى بغداد قافلا من مصر وفلسطين (السبكي، 1964، صفحة 200) (الذهبي، 1984، صفحة 330)، أي بعد سنة 500هـ، وابن خلكان يذهب أبعد من هذا فيجعل تصنيفه للإحياء بعد عودته لطوس (ابن خلكان، دت، صفحة 217).

- أورد صاحب الحلل الموشية رواية مفادها أن عبد المؤمن سأل ابن العربي عندما دخل عليه عن لقياه بالمهدي عند الغزالي عندما تتلمذ عنده، فأخبره أنه لم يره وإنما سمع به (مؤلف مجهول، 1979، صفحة 148).

فهذه الرواية يمكن دحضها من وجهين:

- **أولا** في حال ثبوتها فهي لا تثبت لقاء ابن تومرت بالغزالي لأن ابن العربي ذكر أنه لم يره عنده.

- **ثانيا** يبدو الاضطراب واضحا في تاريخ هذا اللقاء لأن معظم من ترجم لابن العربي جعل رحلته قبل سنة 500هـ أصلا وأنه عاد منها سنة 495هـ (القاضي عياض، 2003، صفحة 40) (بشكوال، 1989، صفحة 856) (ابن خلكان، دت، صفحة 297) أي قبل خروج ابن تومرت في رحلته.

ومن كل هذا ندرك أن اللقاء المزعوم لم يتم وإنما كان اختلاقا يهدف للتوظيف الدعائي لا أكثر.

وقد حج ابن تومرت وأقام بمكة وحصل على قدر من علم الشريعة والحديث النبوي وأصول الفقه والدين (ابن خلكان، دت، صفحة 45)، كما أن إقامة ابن تومرت الطويلة في مصر والشام كانت بالتأكيد الأساس لسلوكه في المستقبل.

ففي هذين البلدين وجد ابن تومرت نفسه في جو فكري حافز، فالمجادلات الفقهية العظيمة التي جرت في القرون السابقة كانت خلفت آثارا، وكانت المدرسة الفقهية الأشعرية التي كانت قد سادت آخر الأمر ما تزال في أوج قوتها ونشاطها (روجر لي تورنو، 1998، صفحة 16).

وبعد هذا فإن لقاءه بأئمة الاشعرية واستحسانه لطريقتهم في الانتصار للعقائد السلفية والذود عنها بالحجج العقلية، جعله يذهب إلى رأيهم في تأويل المتشابه من الآيات والأحاديث (الناصري، 1954، صفحة 73)، ثم أخذ بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في أثناء عودته إلى المغرب، فتعرض للأذى حيث كان لا ينزل في مكان إلا وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر ما جلب عليه سخط السلطات والفقهاء (البيذق، 1971، الصفحات 11–14) (ابن ابي زرع الفاسي، 1971، الصفحات 173–174).

ومن ذلك أنه وصل إلى بجاية عام (511هـ/1117م)، حيث أغلظ لأميرها وإتباعه القول ليفر منها إلى ضيعة ملالة بعد أن ائتمروا به ويحتمي ببعض بطون صنهاجة التي منعته (ابن خلدون، 2001، صفحة 302)، وحين خرج من مراكش بعد أن التقى فيها بعلي بن يوسف اتجه صوب هرغة من بلاد السوس (ابن عذارى المراكشي، 1983، صفحة 68).

ومن ثم فقد بدأت حملة الدعاية الموحدية ضد الحكم المرابطي، وقد شملت الحملة عدة أوجه عصبية منها واقتصادية ومذهبية، كما وظفت عدة وسائل وآليات، وهو ما سنتناوله.

4. دعاية عصبية اقتصادية

سيسمح البحث في التاريخ القبلي لبلاد المغرب إلى إيجاد صورة واضحة للواقع القبلي آنذاك، والذي اتسم بسمات أهمها التعصب للعرق وصعوبة الانقياد، ما أدى إلى حالة من الفوضى والتشرذم السياسي، ولمتكن قبائل مصمودة البرنسية فيما عزل عن هذا الواقع حيث لم يعرف المصامدة كيانات سياسية إلا من خلال برغواطة ودرن (ابن خلدون، 2001، صفحة 275)، وهي دولة الموحدين فيما بعد، وما عدا ذلك فلم يتجاوز بعض الاتحادات القبلية التي يحكمها المشايخ تداولا بينهم (البكري، 1992، صفحة 843)، والتي يسميها ابن خلدون بدولة إمغارن (ابن خلدون، 2001، صفحة 244)، وقد جعلت هذه الإمارات الصغر بالمصامدة قبل انطلاق الحركة المرابطية يعيش ونحالة الشتات (الحسين أسكان، 2010، صفحة 32)، ويبدو أن حكم المشايخ لم يكن كافيا لجمع الشتات

المصمودي فمن الواضح أنها عترته بعض التصدعات التي أفضت إلى زوال السلطة السياسية بالمرة، ما جعل المصامدة يستفتون الفقهاء في تطبيق الأحكام والحدود على المفسدين نيابة عن السلطة السياسية والقضائية الغائبة (الونشريسي، 1981، صفحة 102)، حيث كتبوا إلى ابن أبي زيد القيرواني في القرن(4هـ/ 10م) يعلمونه بما يقع في بلادهم من سفك للدماء وتعصب قبلي (بن العربي، دت، صفحة 83)، وهي نفس الحالة التي وصفها عبد الله بن ياسين عند مروره ببلاد المصامدة، **حيث وجدهم يغيرون بعضهم على بعض يغنمون الأموال ويقتلون الرجال ويسبون النساء ولا يرجعون إلى طاعة إمام**، فلما نصحهم بتقديم إمام يحكم بينهم قال له بعض أشياخ المصامدة: **لا يرضى أحد منا ينقاد إلى حكم منغير قبيله** (ابن عذارى المراكشي، 1983، صفحة 10).

اقتصاديا تميزت مناطق التواجد المصمود يوفرة في الإمكانات الاقتصادية، وقد تناولتا لمصادر الجغرافية تلك المقومات (البكري، 1992، صفحة 843) (الادريسي، 2002، الصفحات 227–235)، والتي تنوع تبين مختلف المنتجات الزراعية والموقع الذي يربط شمال المغرب بالسودان الغربي، إضافة إلى التكسب بالتحرف لأهل السوس والذي شمل حتى النساء والصبيان (البكري، 1992، صفحة 855)، وفي المقابل فإن استقرار المرابطين بالقرب من مناطقهم أدى إلى عدم توازن وخلخلة النظام والأمور التي كان يعيش عليها المصامدة لأن المنطقة تشكل مجالا حيويا بالنسبة لهم (**Sadqi Ali, 1990, p. 17**)، خاصة بعد بناء مراكش والتي بنيت لي ملكيها المرابطون جبل درن لكثرة من يعمره، ونفس المعنى أورده صاحب الحلل الموشية: "**ليكون زمام الجبل بيد أميرها**" (مجهول، 1985، صفحة 209) (مؤلف مجهول، 1979، صفحة 16)، وكان من أهداف اتخاذ مراكش مخيم الجيش المرابطي حسب ابن خلدون: " **التمرس بقبائل المصامدة المقيمة بمواطنهم ومنها في جبل درن، إذ لم يكن في قبائل المغرب أشد منهم قوة ولا لأكثر جمعًا**" (ابن خلدون، 2001، صفحة 183)، وقد زادت حدة امتعاض المصامدة من السلطة المرابطية بعد شعورهم بالتهميش بعد أن صارت العلاقة بين الطرفين على الرغم من مشاركة عدد من مشايخ المصامدة في مراسم البيعة (ابن عذارى المراكشي، 1983، الصفحات 15–16) (ابن ابي زرع الفاسي، 1971، صفحة 128) (مؤلف مجهول، 1979، صفحة 26) اسمية فقط، والمظهر الوحيد الذي تجسدت من خلاله هو جباية الضرائب، فقد كانت السلطة المرابطية توفد من آن لآخر حملة عسكرية إلى المغرب بغرض الجباية، وقد ذكرت بعض المصادر أن الجنود الروم المنخرطين في جيش المرابطين يتصرفون مع الساكنة تصرف الغزاة، حتى أن ابن الأثير ذكر أنه جرت عمليات اغتصاب واسعة (ابن الأثير، 1987، صفحة 198)، كل هذا جعل المصامدة يتحينون الفرصة للانقضاض على خصومهم المرابطين، خاصة وأنهم كانت لهم مع ملوك المغرب حروب وفتن سائر أيامهم كما وصفهم ابن خلدون (ابن خلدون، 2001، صفحة 224)، وعلى هذا الأساس نجد أن

المرابطين اتخذوا موقفا حذرا من المصامدة وما قد يصدر عنهم، ويبدو أن ابن تومرت كان على علم بظروف قبيلته قبل رحلته وأثناءها، فقد كان يسأل عن جبل درن موطن المصامدة (البيذق، 1971، صفحة 17)، كل هذه الظروف دخلت ضمن حملة ابن تومرت وعبد المؤمن الدعائية لصالح المشروع السياسي القائم، فقد ركّزت على الاقلال المالي والاقتصادي للمصامدة وربطته بشقين:

أولهما: وجوب التوحد والتعاون السياسي الذي يضمن لهم العيش الكريم، فراح ابن تومرت يذكرهم بالاضطهاد الحاصل عليهم في ضلال حكم القبلي الأجنبي عنهم بقوله: "**فطالما كنتم أيام زناتة يأتي الرجل على داره في جد الزناتي بأمساك فرسه على باب الدار فما شبعتم الخبز إلا في أيامنا ولا كسبتم المال إلا في دولتنا**" (ابن القطان، 1990، صفحة 87).

وثانيهما: الضرائب المفروضة من قبل المرابطين، فقد أبدى اعتراضه على مطالبه بالمكوس حين أراد عبور وادي أم الربيع،.. (البيذق، 1971، صفحة 46).

واتهم المرابطين بأنهم أحدثوا المعارك وفرضوا المكوس وأكلوا الحرام وأوجبوا على الناس ما لم يوجبه الشرع (ابن تومرت، 1997، صفحة 231).

استقر ابن تومرت في تنملل وفيها أنشأ رباطا للعبادة وألف عقيدته التوحيدية باللسان البربري حتى يسهل فهمها على قومه (ابن خلدون، 2001، صفحة 303)، ولما فهموا معاني تلك العقيدة زاد تعظيمهم له، وأشربت قلوبهم لمحبته (المراكشي، دت، صفحة 254)، وقد قام يعظ المصامدة نحو سنة ويُذكرهم بأيام الله ويذكر لهم شرائع الإسلام وما غير منه وما حدث من الظلم والفساد (ابن الأثير، 1987، الصفحات 196–197).

5. دعاية مذهبية

عرفت المنطقة تطورات كبرى على الجانب العقدي والديني والتاريخ المذهبي والذي مثل فسيفساء متعددة القطع ومرد ذلك إلى أمرين أولهما طبيعة التفكير البربري وشخصية أهل هذه المناطق، والثاني هو طبيعة البيئة الجغرافية التي تواجدت فيها والتي لعبت دورا مهما في جعلها معقل الكلمة مذهب بمذهبي خالف دولة الخلافة.

دخلت منطقة السوس إلى الإسلام في فترات مبكرة على يد عقبة بن نافع الفهري، وبنى بها عبد الرحمن بن حبيب معسكره (البكري، 1992، صفحة 853)، وقد بقيت المنطقة محافظة على طاعتها للدين ومخافة لنحلة إخوانهم من برغواطة (ابن خلدون، 2001، صفحة 299)، أما عن المذهب السائد فيها فلا يمكن أن نجزم بعد موجود التشيع بصورة أو بأخرى، خاصة مع ما يلاحظ من تعلق البربر بآل بيت النبي صلى الله عليه وسلم وذريتهم، ومع وجود شخصية هاشمية مثل حمزة بن جعفر بن عبيد الله بن ادريس بن ادريس في المنطقة (البكري،

1992، صفحة 851)، وقد أوردت بعض المصادر انقسام المصامدة مذهبي أو بصورة فعلية بين مذهب مالك في تارودانت ومذهب موسى بن جعفر (المذهب الشيعي الاثني عشري) بتويوين وأن هذا الخلاف أدى في الغالب إلى الفتنة وسفك الدماء (الادريسي، 2002، صفحة 228)، كما لا يمكننا الجزم بعدم وجود المذهب الخارجي في المنطقة باعتبار أرض المغرب عموما شهدت وعلى فترات متعددة انتشار هذا المذهب بشقيه الإباضي والصفري، ومن الواضح أن الحضور المذهبي في المنطقة لم يكن وجودا فعليا بقدر ما كان وجودا صوريا معنويا تحول بصورة أو بأخرى إلى تعصب قبلي بصفة عامة، فقد وصفهم صاحب الأنيس المطرب بأنهم قوم لا يعرفون شيئًا من أمور الدنيا ولا من أمور الدين (ابن ابي زرع الفاسي، 1971، صفحة 177)، **ومن كل هذا سعى ابن تومرت لإيجاد توليفة جامعة في الشق المذهبي ليحقق بها عددا من المكاسب منها:**

- توحيد جميع المصامدة في بوتقة مذهبية واحدة جامعة تضم شزرا من كل مذهب متواجد في المنطقة (التشيع، أهل السنة، الخوارج، المعتزلة) لضمان الوحدة السياسية لهم من جهة ومن جهة أخرى ضمان السلطة الدينية لديها، ومن ناحية أخرى فهذه التوليفة مثلت آلية استثمر فيها كل عوامل الاستقطاب السياسي.

- الوحدة المذهبية تحت لواء مضلة تأويلية كلامية أشعرية واعتقادها يفضي إلى ضمان الحماس الديني في محاربة المرابطين الذين أشاع عنهم ابن تومرت نفسه أنهم مجسمة لا يفقهون أصول الدين، زيادة على رفضهم لعلم الكلام جملة.

6. وسائل الدعاية

وفي بداية الحملة لم يكن توازن القوى في صالح ابن تومرت، ولذلك لم يكن له مجال في اختيار وسائل العمل الذي قرر أن يقوم به، فكل شيء يراه صالحا له مادام يساعده على الاقتراب من الهدف المتمثل في الإطاحة بالحكم الصنهاجي، وقد اتخذ عدة وسائل في حملاته الدعائية:

1.6. الاستنقاص والطعن والتحريض:

أخذ يشنع على المرابطين ويصفهم بكل قبيح بقوله:" **أما أصحاب الفتن فهم رؤوس الجهلة والملوك الفجرة والدجاجلة الطغاة... والفاسقون والمنافون والمشركون ...والمبتدعون والمتحرفون...**" (ابن تومرت، 1997، صفحة 383)، كما كان يسمي لمتونة بـ"**الحشم**" (ابن خلدون، 2001، صفحة 305)، كما كان تسميته لأتباعه بالموحدين تعريض بلمتونة لعدولهم عن الأخذ بالتأويل وميلهم إلى التجسيم (ابن خلدون، 2001، صفحة 305)، وبعد هزيمته في معركة البحيرة سأل أصحابه عن لمتونة ما يقولون عنا؟ فقالو: لقبونا بالخوارج، فقال: **لقبوهم بالمجسمين والزراجنة** (مؤلف مجهول، 1979، صفحة 111)، وقد اتخذ مما اعتبره مفاسد الطبقة العليا مادة لوعظه

وهدفا لأمره ونهيه (عز الدين عمر موسى، 1990، صفحة 38)، وقد حاول منذ البداية التحريض على الحكم المرابطي، حيث جعل قتالهم واجب متعين على كل مؤمن ولا عذر لأحد في تركه (ابن تومرت، 1997، الصفحات 407-409-410).

2.6. ادعاء المهدوية والنسب الشريف:

ذكرنا سابقًا أن ابن تومرت دعيٌ للنسب العلوي، وقد حاول توظيف هذا العنصر لاعتبارين:

- كان لابد من الاستناد إلى الأسس الشرعية اللازمة كالنسب النبوي أو الأصل العربي، لكسب قلوب العامة وتأييد الناس، وذلك للمكانة العالية التي يحتلها آلا لبيت فيقلو بالناس والتأييد الكبير الذي يحظى به كل من يدعي النسب الشريف.
- لا يمكن لابن تومرت أن يعزز صورته المهدوية عند العامة إلا إذا كان من آل البيت مصداقا لأحاديث النبي عليه الصلاة والسلام.

ومنه فقد وجعل يذكر المهدي ويشوّق إليه (ابن القطان، 1990، الصفحات 180-181)، وجمع الأحاديث التي جاءت فيه من المصنفات، فلما قرر في نفوسهم فضيلة المهدي ونسبه ونعته ادعى ذلك لنفسه، وقال أنا محمد بن عبد الله ورفع نسبه إلى النبي عليه الصلاة والسلام وصرح بدعوى العصمة لنفسه (المراكشي، دت، صفحة 255).

وقد أورد ابن القطان دعواه بالمهدوية كالتالي: "**ولما استوسق الإمام المهدي من قبيلته وموضعه ومنعته.. قام فيهم خطيبا فقال: الحمد لله الفعال لما يريد القاضي بما شاءه لا راد لأمره، ولا معقب لحكمه، وصلى الله على سيدنا محمد رسول الله المبشر بالامام المهدي، الذي يملأ الأرض قسطا وعدلا، كما ملئت جورا وظلما، يبعثه الله إلى نسخ الباطل بالحق، وازالة الجور بالعدل، مكانه المغرب الأقصى، وزمانه آخر الزمان، والاسم الاسم، والنسب النسب والفعل الفعل**" (ابن القطان، 1990، الصفحات 124-125).

3.6. الاعتماد على الدجل والخوارق:

اعتمد ابن تومرت على التدجيل والحيل لإيهام الناس بقدرات خارقة للعادة وكرامات تدعم مكانته كولي مهدي مؤيد بالقدرة الإلهية، وكان اعتماده في ذلك على أمور منها:

- الاتكال على طبيعة عقلية المنطقة البعيدة عن التدين الحقيقي كما ذكرنا سابقًا.
- الاعتماد على ذوي العقول الضعيفة والقوة الجسمانية فحسب (ابن خلكان، دت، صفحة 48).

ومن مظاهر هذه الوسيلة خدعة تكليم الموتى (ابن ابي زرع الفاسي، 1971، صفحة 182)، واستعمال تخليط الكلام (ابن خلكان، دت، صفحة 46)، كما كانت حادثة التمييز من أكبر مظاهر هذه الوسيلة (البيذق، 1971، صفحة 39).

4.6. الاعتماد على الترهيب:

استخدم ابن تومرت في نشر دعوته على وسائل ترهيبية تقتيلية إزاء الأصوات المعارضة له ولحركته، ولا أدل على ذلك من حادثة التمييز التي استخدم فيها ابن تومرت الخداع في شخصية البشير الونشريسي وقتل فيها أعداد كبيرة من المعارضين بلغ سبعون ألفا في بعض الروايات (ابن الأثير، 1987، صفحة 199).

5.6. عوامل نجاح الحملة الدعائية:

استطاعت الحملة الدعائية الموحدية أن تنجح في تقويض الحكم المرابطي بعد أن استغل القائمون عليها ظروف المغرب آنذاك، من خلال تركيزها على عدة نقاط فارقة منها:

- التسامح الكبير الذي أبداه علي بن يوسف تجاه ابن تومرت
- الضرب على وتر العصبية المصمودية واستغلال عداوتها لصنهاجة.
- استغلال حالة الإقلال التي عاشها المصامدة رغم الوفرة الاقتصادية التي حظيت بها مناطقهم، وربط ذلك بالتعسف الجبائي الاستغلالي المرابطي.
- استغلال حالة التشرذم المذهبي والعقدي في المنطقة بإنشاء مرجعية مذهبية جامعة مخالفة لمذهب ومنهج المرابطين.
- استغلال إيمان البربر عموما والمصامدة خصوصا بالفكر الخوارقي الاعجازي (البيذق، 1971، صفحة 181)، من خلال استخدام الآلية الكرامية في دعم الحملة الموحدية، والتي استطاعت أن تصنع صورة مقدسة لشخصية ابن تومرت (المراكشي، دت، صفحة 259).

7. خاتمة:

من خلال تتبعنا لمسار الحملة الدعائية بداية من سيرة ابن تومرت إلى غاية عوامل نجاح الحملة مرورا بمظاهرها وآلياتها نستنتج ما يلي:

- وعلى الرغم من أن ابن تومرت لم يحقق النجاح في الإطاحة بدولة المرابطين، إلا أنه قد تمكن من إنشاء قاعدة شعبية تؤمن به إماما ومهديا وتعتنق كل ما جاء به من آراء، حيث وصفها المؤرخون بقولهم: "**ولم تزل طاعة**

المصامدة لابن تومرت تكثر وفتنتهم به تشتد وتعظيمهم له يتأكد إلى أن بلغوا في ذلك إلى حد لو أمر أحدهم بقتل أبيه أو أخيه أو ابنه لبادر إلى ذلك من غير إبطاء" (المراكشي، دت، صفحة 259)، وعلى هذا الأساس رأى الموحدون أنفسهم فيما بعد أنهم أحق الناس بالخلافة لأنهم أكثرهم إيمانا ومعرفة واتحادا.

- ولبدء تحقيق هدف الدعوة الممثل في نقض الحكم المرابطي كان لا بد له من خلق شرعية يستند عليها لتبرير ثورته وكان أهمها النسب العلوي، والاستغلال الأمثل لظروف المغرب، وأهمها على الإطلاق كانت المهدوية الإنقاذية.

- أما النتيجة الواضحة والنهائية لكل هذه الحملة فكانت تبوء عبد المؤمن بن علي سدة الحكم في الدولة الوليدة، ما يرجح أنه هو صاحب المشروع السياسي للدولة الموحدية، خاصة إذا عرجنا على عدة نقاط تستدعي استئناف النقاش والبحث حولها ومنها:

- أن بعض المصادر نصّت صراحة على أن ابن تومرت هو صاحب دعوة عبد المؤمن (ابن خلكان، دت، صفحة 45)، ولا يمكننا بحال إلا أن نقول أن صاحب الدعوة موكّل بأمر من موكّله ولا يملك منها شيء، مثلما كانعليه الأمر مع عبيد الله الشيعي ورستم ابن حوشب مع الاسماعيلية.

- تتويج عبد المؤمن على رأس الدولة وهو الفرد في مقابل جموع المصامدة وفي معاقلهم يؤكد أنه هو الفاعل الأساسي في الدعوة إن لم يكن هو المخطط لها أساسا، وبالأخص بعد امتعاض مصمودة من تتويجه وتخطيطهم لقتله (المراكشي، دت، صفحة 341).

- دخول قبيلة كومية الزناتية في التحالف المصمودي المكون من سبعة قبائل كلها من مصمودة البرنسية إضافة لها يوحي بدخولها بأمر من عبد المؤمن، خاصة إذا ما نظرنا للعداوة التاريخية بين مصمودة وزناتة والتي ذكرها ابن تومرت في كلامه الذي أوردناه.

- استخدام ابن تومرت للدجل وتخليط الكلام واستخدام الحيل تطعن في شخصيته العلمية وتصدّر لنا صورة الإنسان الدجال، في مقابل شخصية عبد المؤمن التي اتفق المؤرخون على رسوخها في القوة والذكاء والحنكة.

5. قائمة المراجع:

1. ابن ابي زرع الفاسي. (1971). الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس. الرباط: دار المنصور للطباعة والوراقة.

2. ابن الأثير. (1987). الكامل في التاريخ (الإصدار 9). (أبو الفداء عبد الله القاضي، المحرر) بيروت: دار الكتب العلمية.

3. ابن الخطيب. (1964). تاريخ المغرب العربي القسم الثالث من أعمال الاعلام. (أحمد مختار العبادي ومحمد إبراهيم الكتاني، المحرر) الدار البيضاء: دار الكتاب.
4. ابن القطان. (1990). نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان. (محمود علي مكي، المحرر) بيروت: دار الغرب الإسلامي.
5. ابن بشكوال. (1989). الصلة (الإصدار 3). (ابراهيم الأبياري، المحرر) القاهرة: دار الكتب المصرية.
6. ابن تومرت. (1997). أعز ما يطلب. (عبد الغني أبو العزم، المحرر) الرباط: مؤسسة الغني للنشر.
7. ابن خلدون. (2001). العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر (الإصدار 6). (خليل شحادة وسهيل زكار، المحرر) لبنان: دار الفكر.
8. ابن خلكان. (دت). وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان (الإصدار 5). (إحسان عباس، المحرر) بيروت: دار صادر.
9. ابن عذارى المراكشي. (1983). البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب (الإصدار 4، المجلد 3). (ج.س. كولان وليفي بروفنسال، المحرر) بيروت: دار الثقافة.
10. أبو العباس الناصري. (1954). الاستقصا لدول المغرب الأقصى (الإصدار 2). (جعفر الناصري ومحمد الناصري، المحرر) الدار البيضاء: دار الكتاب.
11. أبو بكر بن العربي. (دت). شواهد الجلة والأعيان في مشاهدة الإسلام والبلدان (الإصدار 2، المجلد 81). السعودية: مخطوط بمؤسسة الملك سعود بن عبد العزيز.
12. أبو بكر بن علي الصنهاجي البيذق. (1971). أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين. (عبد الوهاب بن منصور، المحرر) الرباط: دار المنصور للطباعة والوراقة.
13. الادريسي. (2002). نزهة المشتاق في اختراق الآفاق. القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية.
14. البكري. (1992). المسالك والممالك. (أدريان فان ليوفن وأندري فيري، المحرر) بيروت: دار الغرب الإسلامي.
15. الحسين أسكان. (2010). الدولة والمجتمع في العهد الموحدي. الرباط: المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية.
16. الذهبي. (1984). سير أعلام النبلاء (الإصدار 19). (شعيب الأرناؤوط، المحرر) بيروت: مؤسسة الرسالة.

17. الفراهيدي. (2003). كتاب العين (الإصدار 2). (عبد الحميد هنداوي، المحرر) بيروت: دار الكتب العلمية.

18. الفيروز آبادي. (2008). القاموس المحيط. (انس محمد الشامي وزكريا جابر أحمد، المحرر) القاهرة: دار الحديث.

19. القاضي عياض. (2003). الغنية _ فهرست شيوخ القاضي عياض_. (علي عمر، المحرر) القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية.

20. الونشريسي. (1981). المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل افريقية والاندلس والمغرب (الإصدار 10). (على حجي وآخرون، المحرر) المغرب، المغرب: وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية.

21. تاج الدين السبكي. (1964). طبقات الشافعية الكبرى (الإصدار 6). (عبد الفتاح الحلو ومحمود الطناحي، المحرر) القاهرة: دار إحياء الكتب العربية.

22. رشيد بورويبة. (1982). ابن تومرت. (عبد الحميد حاجيات، المترجمون) الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.

23. روجر لي تورنو. (1998). حركة الموحدين في المغرب في القرنين الثاني عشر والثالث عشر (المجلد 2). (امين الطيبي، المترجمون) الدار البيضاء: شركة المدارس للنشر والتوزيع.

24. عبد الله كنون. (1961). النبوغ المغربي في الأدب العربي (الإصدار 1). بيروت: الشركة العالمية للكتاب.

25. عبد الواحد المراكشي. (دت). المعجب في تلخيص أخبار المغرب (من لدن فتح الأندلس إلى آخر عصر الموحدين). (محمد سعيد العريان، المحرر) القاهرة: لجنة إحياء التراث الإسلامي، الكتاب الثالث.

26. عز الدين عمر موسى. (1990). الموحدون في الغرب الإسلامي تنظيماتهم ونظمهم. بيروت: دار الغرب الإسلامي.

27. غي دورندان. (2002). الدعاية والدعاية السياسية (المجلد 2). (رالف رزق الله، ا، المترجمون) بيروت: لمؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.

28. مجمع اللغة العربية. (1980). المعجم الوجيز. القاهرة: مجمع اللغة العربية.

29. مصطفى الحفناوي. (2012). الدعاية السياسية والاستعلام. القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة.

30. مغنية غرداين. (2016). نظام الحكم في بلاد المغرب في عهدي المرابطين والموحدين (ق 5_7هـ/ 11_13م) _ دراسة مقارنة_، أطروحة دكتوراه. تلمسان: جامعة أبو بكر بلقايد، تلمسان.

31. مؤلف مجهول. (1979). الحلل الموشية في الأخبار المراكشية. (عبد القادر زمامة وسهيل زكار، المحرر) الدار البيضاء: دار الرشاد الحديثة.

32. مؤلف مجهول. (1985). الاستبصار في عجائب الأمصار. (سعد زغلول عبد الحميد، المحرر) الدار البيضاء: دار النشر المغربية.

33. هاني الرضا، ورامز عمار. (2013). الرأي العام والاعلام والدعاية (المجلد 2). بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.

34. Sadqi Ali. (1990). La montagne marocaine et le pouvoir central, un conflit séculaire mal élucidé, (Vol. 28). in HésperisTamuda , (28), Fas.unique.